مقدّمة

بقلم الدكتور أحمد زكي

هذا الكون عجيب .

عجيبة ارضه ، وعجيبة سماؤه .

وليس بأعجب ما في الارض صخورها ورمالها . وليس بأعجب ما في الأرض جبالها ووديانها ، وليس بأعجب ما في الارض انهارها وبحارها . وليس رعدها القاصف ، ولا برقها الخاطف ، ولا مطرها الهاطل ، ولا رياحها العاصفة ، ولا أعاصيرها الجائحة ، ولا زلازلها المخربة ، ولا براكينها وهي بالحمم متفجرة .

وليس بأعجب ما في الأرض نباتها . وليس ما مشى على الأرض بمخلب ، أو دب على الأرض بحافر . وليس حشرها ، وليس طيرها ، وليس سمكها ، على كثرة ما في كل هذا من أعاجيب .

ان أعجب ما في الأرض سيد حيوانها — الانسان .

وأعجب ما في الانسان رأسه .

وأعجب ما في الرأس الفكر .

فالفكر أعجب شيء عرفناه في هذا الكون.

والفكر هو موضوع هذا الكتاب.

ان كاتب هذا الكتاب انما كتبه ليمجد الفكر الانساني.

فالفكر للانسان وحده، وكل من عرفنا من الخلق، في الفكر قاصر.

والفكر هو صانع هذه المدنية. وتاريخ هذه المدنية انما هو تاريخ فكر.

فاكتشاف الزراعة فكر. واكتشاف الصناعة فكر. وتجمّع الناس في القرى كان عن فكر. وصيرورة القرى الى مدائن كانت عن فكر. والأدب فكر. والفن فكر. والعلم فكر.

والمدنية الغربية عنده مدنية فكر، بدأت بالاغريق فالرومان. وأغفى الفكر حيناً بعد حين، وهو يستيقظ لينام، وينام ليستيقظ، ولا يموت أبداً، حتى انتهى الى ما انتهى اليوم اليه من حال.

وليس لانبثاق الفكر قانون يحكمه، وليس لانبعاث المفكرين في الأمم. فهم ينبعثون على الشدة، وهم ينبعثون على الرخاء. وقد يزدحم بأهل الفكر جيل في قرن، ليخلو منهم كل الخلاء، أو يكاد، قرن يليه.

والفكر ينبعث بغتة ، وقد ينبعث تدرجا . وقد ينبعث ويتوهج في راس ابن القصر، وقد ينبعث ويتوهج في رأس ابن الكوخ .

وتسأل لماذا وكيف ؟

ولا يجيبك أحد عن ماذا وكيف .

وأنت تحمـــل رأسك وفيه الفكر ، ولكنك لا تدري كيف تفكر . وأنت بالفكر تعي من الدنيا مـا تعي ، ولكنه شعاع واحد توجهه في البرهة الواحدة ليدلك على شيء يجري في هذه الدنيا واحد . ان للكون وجوهاً ألوفاً ، لا يستطيع الفكر ان يجمعها في حدقة واحدة .

ان الدنيا خافية برغم مـــا يسطع فيها نهاراً من نور . والفكر أخفى شيء فيها .

وكل حيّ يفكّر ما كان في يقظة ، وهو يفكّر رغماً منه من حين يستيقظ الى حين ينام . والتفكير منه الضحل ومنه العميق . والقلّة القليلة من الناس هي التي تفكّر في شيء ذي بال . والقلّة الأقل من الناس هي التي تحدو بفكرها الناس ، فيتقدمون ، وتشق لهم طريقاً فيتبعون .

وأكثر العقل عند أكثر الناس متعطل ، وأكثر العقل عند أقل الناس يعمل . وأقول أكثر العقل لأن في العقل بقية بل بقايا لا تزال متعطلة عند أكثر الناس فكراً .

وليس لتحريك العقل الحامل، أو الناشئ، الى الفكر، كجلوسه الى العقول الناشطة الراجحة. وكم عقل مات صاحبه، ولكن طواه حيًّا الى الأبد في كتب أو كتاب.

ومستقبل الانسان على هذه الأرض مستقبل عقول. ان الكثرة الكبرى من الناس أميّة، والاميّة في العصر الحاضر باب مغلق دون أنتجة العقول، تلك المذخورة في صفحات الأوراق. والأميّة آخذة عند بني الناس في التزايل، فعقول السواد آخذة في التفتح، وهذا خير كبير. والعلم آخذ في تسهيل العيش وترفيهه، وقد يكون من هذا للفكر شرّ مستطير. وقد يقيّد الفكر، ويلجم الجاماً، فلا ينمو، أو ينمو كالسرطان. ان الفكر لا ينمو نماء الطبع والفطرة، والصحة، الا على الاطلاق والتحرير.

على هذا النحو يجري المؤلف في كتابه، يبحث في الفكر، في الناس، ما كان منه وما يستقبل.

ثم هو يأخذ ينظر في حوائل تقوم موانع دون الفكر فلا ينطلق، فيجد من هذه الموانع ما هو خارج عن الفكر وعن صاحبه... ويجد منها ما هو في العقل دخيل، لا تستطيع بحكم الطبع أن تقتحمه العقول.

وهنا يتراءى العقل الانساني، القادر كل القدرة، العاجز كل العجز.

وهنا يتراءى صدق ما قال به أقدمون، ويقول به أحدثون، أن الفكر يفتح الطريق بل الطرق الكثيرة

العديدة ، ولكن ما من طريق ينتهي الاّ الى سدّ من صخر يصطدم به عابره ، فلا يكون له الى العودة سبيل .

ولكن . . .

ولكن ، هل العقل هو وحده المصباح الواحد الذي يحمله السابل في طرقات هذه الدنيا ؟

انّا نسمع اللحن الجميل فنطرب ، فهل بالعقل نحن نطرب ؟

ونقرأ الشعر فنعجب ، فهل بالعقل نحن نعجب ؟

ونهتز للجمال ، في صورة ترسم أو تمثال ينحت ، أو تمثال من لحم حيّ تدفئه الدماء . ونهتز للجمال في الطير أو في الزهر ، ونهتز لجمال الحركة في الرقص وغير الرقص ، كما نهتز لجمال السكون ، فهل بالعقل نحن نهتز ؟

والطبيعة تسالم فنأنس بها ، وهي تغضب وتصخب فتهول ، فنفزع منها ، فهل بالعقل وحده يكون بها أنس ومنها فزع ؟

أم بالنفس الانسانية شيء آخر ، أشد من العقل خفاء ، هو ، كالعقل ، سبيل الناس الى ادراك والى خبرة .

***

ساعات قضيتها مع مؤلف الكتاب ، يعتمل فيها فكري وأنا أقرأ لرجل يتحدث عن الفكر ، ما كان أمتعها لفكري ، قادرا وعاجزا .

وأتفق مع المؤلف فيلذّني اتفاق، وأختلف معه حينا فيلذني اختلاف. ان الاختلاف يحرك الفكر، وأنا أحرص على أن أقرأ لمختلف، عاقل مخلص، مني عـــلى أن أقرأ لمؤتلف. ان القراءة على ائتلاف دائماً، كشرب الماء، لا يلذّ الاّ لظامئ.

ثم المؤلف.

انه المستر جلبرت هايت، ولد في اسكتلندة، وتعلم بجامعتي جلاسجو وأوكسفرد، ثم رحل الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٧، أستاذاً للّغة الاغريقية واللاتينية بجامعة نيويورك الشهيرة، جامعة كولمبيا. وهو الى اليوم هناك. فهو انجليزي تأمرك، فجمع بين خبرتي أمتين. وهو مؤلف شهير، يؤلف في الأدب، وفي التربية. واذاعاته الأدبية ومقالاته يتلقفها السامعون والقرّاء. وهو يستمتع بصحبة زوجة هي الأخرى مؤلفة شهيرة. انها القصّاصة هيلانة ماك انس، ويدل اسمها على أرومة اسكتلندية كذلك. وهما يجتمعان عند البيان، يعزفان معاً. فإذا قاما يؤلفان، افترقا.

ثم المترجم.

ولست أدري أأنا في حـــاجة الى التعريف به في بلاد العرب. ان قرّاء العربية لا ينسون للأستاذ فؤاد صروف صولاته في المقتطف حين كان يعمل مع عمه الدكتور يعقوب صروف، ولا جولاته حين استقل برآسة تحريره سنوات من بعد ذلك.

انه ولد في لبنـــان عام ١٩٠٠ ، وأتمّ دراسته بالجامعة الأمريكية عام ١٩١٨ . وجاء الى مصر عـام ١٩٢٢ . وفي مصر أقام فوق الربع قرن من الزمان . عمل في المقتطف ، اشتراكاً وعلى استقلال ، من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٤٣ . ثم تولى رئاسة تحرير المختار من عـــام ١٩٤٣ الى عام ١٩٤٧ . وأسهم في أثناء ذلك ، ومن بعد ذلك في طائفة كبيرة من الصحف العربية ، يكتب في علم وفي اجتماع وفي شتى الشؤون . ومن مؤلفاته فتوح العلم الحديث ، وآفاق العلم الحديث ، ومذبح المريخ ، والنار الخالدة ، وعلى الطريق . وهو شارك في تأسيس المجمع المصري للثقافة العلمية ، وعمل أميناً له سنوات .

وعاد الى وطنه الأول يستخلصه لنفسه . وأوطان العرب للعرب اوطان سواسية . فرجع الى لبنـــان فشغل منصب نائب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت ومدير شؤونها العامة ، ولا يزال يشغله .

فهذا الكتاب ، وهذا مؤلفه ، وهذا مترجمه . بقي قراؤه . واني ضامن لهم متعة ساعات ، يجلسون فيها الى هذا الكتاب يقرأونه . يقرأون ، بفكرهم ، عن الفكر ، ما هو ، ومـا قدرته ، وما ضعفه ، وما ماضيه وما حاضره وما مستقبله . انـه الفكر يقرأ عن الفكر ، بعد أن أتعبته القراءة عن غيره من الأشياء .

وبالله التوفيق . . .